المؤتمر العالمي السادس
لبديع الزمان سعيد النورسي

العولمة والأخلاق

في ضوء رسائل النور

(البحوث العربية)

ISBN: 975-6438-14-2
Publication: Söz Basım
Year: 2002, İstanbul

مفهوم العدالة الاجتماعية في رسائل النور ودوره في مواجهة العولمة

د. أسامة عبد المجيد العاني(*)

تمثل العولمة تحدياً خطيراً يستهدف الإنسان بشكل عام والمسلم بشكل خاص، هذا التيار العارم يكتسح كل شيء ويؤثر فيه. ومن جملة ما يكتسحه مفهوم العدالة الاجتماعية، إذ إنها تسعى لتقسيم العالم وفقا لنظرية (80-20) أي (20٪) هم الأسياد والبقية خدم لأولئك الأسياد.

في محاولة للحد من هذا التيار العارم، تم الخوض في رسائل النور لاستنباط الحلول التي وضعها الإسلام، لتكوين المجتمع العادل. ولأجل ذلك، فقد تم تناول الموضوع من خلال ثلاثة محاور، تطرق الأول إلى مفهوم العدالة الاجتماعية. وأشار الثاني إلى آثار العولمة المختلفة. واستعرض المحور الثالث السبل المؤشرة لمعالجة آثار المدنية الغربية في رسائل النور وإمكانية استخدامها لمعالجة آثار العولمة.

1- العدالة الاجتماعية في رسائل النور :

يختلف فهم رسائل النور للعدالة الاجتماعية عن غيرها من الفلسفات – رغم عدم ورود هـــذا المصطلح صراحة- وذلك لأنها تناولتها في ضوء كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وبذلك تجنبت الزلات المادية والاجتماعية للفلسفات الوضعية.

لم يهدف الأستاذ النورسي رحمه الله من جعل العدالة الاجتماعية موضوعاً مستقلاً – كما سعت الفلسفات الوضعية لتكريسه وعلى رأسها الماركسية ومن ثم الرأسمالية بعد

(*) الجامعة المستنصرية – بغداد – العراق

محاولاتها لاحتواء المد الاشتراكي – بل تم تناولها كفرع ضمن الأصل المتمثل بالنظام الشمولي للإسلام، ذلك النظام الذي نظم علاقة الإنسان بربه، علاقة الإنسان بالحياة، علاقته مع نفسه، علاقته بالمجتمع ومن ثم بالدولة التي تحكمه.

هذه الشمولية أخفقت النظريات الوضعية في الإحاطة بها لأنها إن ركزت على الجوانب المادية أغفلت العلاقات الإنسانية والعكس صحيح. وفوق ذلك فإنها أهملت الجانب الروحي للإنسان.

يمكن تصور خصائص العدالة الاجتماعية في رسائل النور بالآتي :

1. إن العدالة الاجتماعية، عدالة مستوعبة لكل جوانب الحياة، فلم تقتصر على الجانب الاقتصادي فهي تمثل التوازن القائم على الرحمة التوازن بين الغني والفقير، العالم والجاهل، الرئيس والمرؤوس، (فأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام واطاعة العوام واحترامهم للخواص)[1]

2. لتحقيق العدالة الاجتماعية لابد من كفالة الرزق للجميع وقد تكفل بها الباري عز وجلّ قال تعالى (**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** – هود/6) والرزق الذي تكفل به الخالق هو ما يسدّ احتياجات الإنسان الضرورية. لذا كان الرزق نوعين (حقيقي ومجازي، فالمتكفل بالآية هو الحقيقي. واما المجازي الصنعي اللازم بالتزام مالا يلزم ... فليست الحاجات الكاذبة صورة الرزق. فهذا الرزق غير متكفل بالاية)[2].

3. وتأسيساً على ما تقدم فان العدالة الاجتماعية لا تعني المساواة، فمع أن الباري عزّ وجل رازق للعباد، وتكفل في توفير رزق المخلوقات في جانبها الحقيقي، إلاّ أن الرزق في جانبه المجازي متفاوت لحكمة إلهية (فالعزة والذلة، والفقر والغنى مربوطة مباشرة بمشيئة الله وارادته تعالى. أي أن التصرف في اكثر طبقات الكثرة تشتتاً إنما هو بمشيئة الله وتقديره فلا دخل للمصادفة فيه)[3].

4. مع كـــون الأرزاق مقدرة، إلا أن ذلك لا يعفي الإنسان من السعي للحصول على ذلك الرزق (فمسألة القدر ليست للفرار مـــن التكليف والمسؤولية، بل هو لإنقاذ الإنسان من الفخر والغرور). والمسلم الحق هو العابد الساعي على رزقه (بينما الذي يقيم الصلاة دون أن ينسى نصيبه من الرزق ... لئلا يكون عالةً على الآخرين فجميلٌ عمله.. وهو ضرب من العبادة أيضاً)[5].

إن المتتبع لهذه الخصائص يمكنه أن يستنبط في أن العدالة الاجتماعية في الإسلام كما تناولتها رسائل النور إنما تشير إلى خضوع الكون كلّه بكافة مخلوقاته لله الواحد الأحد،

هذا الخضوع قائم على توازن دقيق ومنتظم تعمل جميع مفرداته في نسق موحد لغاية تجسيد توحيد الخالق. (إن الذي يدبر أمـــرَ هذا الكون هو الذي يحافظ على كل شيء فيه ضمن نظام وميزان. النظام والميزان هما مظهران من مظاهر العلم والحكمة مع الإرادة والقدرة، لأننا نشاهد أن أي مصنوع كأن لم يخلق ولا يخلق إلاّ في غاية الانتظام والميزان)[6].

لذا تأسست العدالة الاجتماعية في الإسلام على التعاون وكان لزاماً تفوقها لأنها تناجي الفطرة وتسعى إلى الألفة، فلم تنهض على الصراع الطبقي بين العمال والرأسماليين كما فعلت الماركسية و لم تؤسس على أساس المنفعة واللذة واحتدام المنافسة واتباع قانون البقاء للأصلح كما تسعى اليوم الرأسمالية.

(فدستور الحياة هو التعاون دون الجدال...، نعم، تجاوب أعضاء الكائنات بشمسها وقمرها لمنفعة الحيوانات، وتسارع النباتات المداد أرزاق الحيوانات، وتسابق مواد الأغذية لترزيق الثمرات ..... دليل قاطع ساطع على أن الدستور العام هو التعاون)[7].

وكون الإسلام دين عمل وعبادة في الوقت ذاته، فقد وضع الأسس اللازمة لتحويل العدالة الاجتماعية من مجرد هدف إلى واقع عملي وأوجد عدداً من الآليات التي من شأنها تطبيق العدالة في المجتمع المسلم. وهذه الأسس هي :

1- العبودية المطلقة لله * :

توجز الكلمة الثالثة استنتاجاً مفاده (باب العبادة تجارة عظمى وسعادة كبيرة). ومنبع السعادة نابع من عبودية الإنسان لله وتحرره من أي شيء آخر. (ذلك لان العابد يقول في صلاته (لا اله إلا الله) أ ي لا خالق ولا رازق إلاّ هو، النفع والضر بيده، وانه حكيم لا يعمل عبثا كما انه رحيم واسع الرحمة والإحسان) [8].

لن يخشى المسلم أحدا أو شيئاً، فهو يعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، فتتولد الشجاعة، ذلك لأنه (منبع الشجاعة ككل الحسنات الحقيقية هو الإيمان والعبودية، وان منبع الجبن ككل السيئات، هو الضلالة والسفاهة)[9].

ولكي تكون عبودية الفرد خالصة لله، لابد من بعد تحرره من عبادة العباد (شخصا وفكرة أو نظرية)، لابد له أن يَتيقنَ بان رزقه مضمون وعليه أن يسعى لتحصيله، دون أن يركن إلى الأسباب. لذا فالعبودية الحقة تتطلب منه أن ينظر إلى الأسباب كواسطة مأمورة سخرها الله سبحانه ليحصل بها على مبتغاه. لكن النفس البشرية الخطاءة طالما

تركن إلى الأسباب معتبرة إياها الغاية والوسيلة والممكنة والمتمكنة فتنثلم العبودية ويتخدش التوحيد وقد تؤدي بالعبد إلى درجة الإشراك الخفي والعياذ بالله. لذلك حذرت رسائل النور من هذا المرض والأمور الموكلة إلى الجبن والقادحة في شأن العبودية. وبسبب ذلك أخفقت الفلسفات الوضعية حين أبرزت الأسباب (ثم ان الفلسفة تمنح التأثير للأسباب وتعطي بيد الطبيعة الإيجاد والإبداع)[10].

(فإبراز أسباب ظاهرية إنما تهوين من شأن عظمة فعل الربوبيه الجليلة المفعمة بالحكمة والاختيار)[11].

ولا يراد من هذه العبارات، استغناء العبد كليا عن الأسباب، ولكن المطلوب هو الأخذ بها وعدم الركون إليها، بل إن الأستاذ رحمه الله أفرد في المقام الثاني من الكلمة العشرين الدلالات الموجودة في القرآن الكريم للبحث عن العلوم البشرية ووسائلها كسبب من الأسباب،بل إن القرآن يفتح مجالات للإنسان ويطلب منه الولوج فيها مثل (ريح سليمان، وعصا موسى، وشفاء عيسى عليهم السلام) [12].

إن من شأن توحيد العبودية للباري عز وجل وحده جعل الجميع خاضعين له فقط دون خضوعها لشخص أو أحد، وبشعورهم لضرورة التوكل والأخذ بالأسباب دون الركون إليها من شانه أن يضمن مجتمعا حراً شجاعاً يسعى ويحمي عدالة المجتمع فالكل عبيد للخالق المتكفل بضمان ارزقاهم.إن الحرية النابعة من الإيمان إنما تأمر بأساسين[13]

أن لا يذلل المسلم ولا يتذلل. من كان عبداً لله لن يكون عبدا للعباد.

أن لا يجعل بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

2- المساواة الإنسانية :

إذا أستشعر الضمير البشري كل التحرر الوجداني، فلن يكون في حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظا وقد استشعرها في أعماقه معنى، ووجدها في حياته واقعا، بل لن يصبر على التفاوت القائم على تلك القيم إطلاقا. سيطلب حقه في المساواة وسيجاهد لتقرير هذا الحق، وسيحتفظ به حين يناله، ولن يقبل عنه بديلا، وسيصبر على تكاليف الاحتفاظ به والذياد عنه، مهما بذل في ذلك من جهد وتضحية [14].

وتشير الرسائل إلى المساواة التي وضعها الإسلام من خلال ثلاث زوايا (المساواة بين الذكر والأنثى، المساواة بين القوميات، المساواة بين الأديان)، إذ إن تحقق المساواة في

هذه المجالات من شأنه ضمان تحققها لتشمل جميع أفراد المجتمع، بل كل البشرية جمعاء. عندها سيستشعرها الفرد ويفني حياته في سبيل الذود عنها.

المساواة بين الذكر والأنثى :

تعتبر الرسائل المساواة بين الذكر والأنثى حاصلة، بل لا تدخل في مناقشتها اطلاقاً، بل تسعى إلى الرد على الشبهات التي تثيرها المدنية الحاضرة والمتمثلة في (تعدد الزوجات وميراث الأنثى).

وترد الرسائل على عدم المساواة في الميراث ما بين الذكر و الأنثى موضحة بأنه (من البديهي إن أغلب الأحكام في الحياة الاجتماعية إنما تسن حسب الأكثرية من الناس، فغالبية النساء يجدن أزواجاً يعيلونهن ويحمونهن – وهو تكليف شرعي – بينما الكثير من الرجال مضطرون إلى إعالة زوجاتهم وتحمل نفقاتهن ..... فإذا اخذ الرجل حظين من أبيه فانه سينفق قسطا منه على زوجته وبذلك تحصل المساواة، ويكون الرجل مساويا لأخته. وهكذا تقتضي العدالة القرآنية) [15]

المساواة بين القوميات :

يمقت الأستاذ رحمه الله، التناحر القومي فيقول (ولقد نظرت منذ السابق إلى القومية السلبية والدعوة العنصرية نظرة السم القاتل، لأنها مرض أوربي خبيث سار ولقد ألقت أوربا بذلك المرض الوبيل بين المسلمين لميزقهم ويفرقهم)[16].

ولم يجعل الإسلام تفضيلا لعربي على عجمي إلا بالتقوى.كما أن هذه المساواة تعني العدالة بذاتها فهي أساس تترسخ بموجبه عندما يعلم الجميع بأنهم لن يضطهدوا لعرقٍ او لون.

المساواة بين الأديان :

أما المساواة ما بين الأديان فنابعة من قوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن) ذلك لأن هذا الأسلوب في المخاطبة يولد المحبة ويولد الهداية لهم، لذلك يصف الأستاذ هذا الأسلوب بأنه (الأساس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء لأنه البناء الذي فيه نلتقي وفيه نلقى الله)[17].

3- التكافل الاجتماعي :

يبدأ التكافل الاجتماعي في ذات الفرد أولاً، بالموازنة بين الحرية الفردية والتبعة الاجتماعية، حتى لا تطغى الحرية الفردية على التبعة الاجتماعية، فيحدث الظلم ولا يتحقق العدل[18].

ضبط الإسلام هذه العلاقة أي مسؤولية الفرد تجاه المجموع من خلال فرض الزكاة.

وتفسر رسائل النور قوله تعالى (**ومما رزقناهم ينفقون**) فتأكد من خلالها على كون الزكاة عصب الحياة بين أفراد المجتمع المسلم وسر تعاونه (فكما أن الصلاة عماد الدين وبها قوامه، كذلك الزكاة قنطرة الإسلام وبها التعاون بين أهله)[19] في كونها (جسر يغيث المسلم أخاه المسلم بالعبور عليها، إذ هي الواسطة للتعاون المأمور به بل هي الصراط في نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر وهي الرابطة لجريان ماء الحياة بينهم)[20]

وتعزي رسائل النور فساد المجتمعات واختلالها وشيوع الرذيلة فيها إلى سببين هما :

أ. الأنانية وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه المجموع – (إن شبعت فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع).

ب. الاستغلال (اكتسب أنت لآكل أنا واتعب أنت لاستريح أنا)[21].

فلكي تسود العدالة الاجتماعية لابد أن تتعاون الطبقات فيما بينها ولابد من وجوب الزكاة وحرمة الربا. إذ بدونهما يغدوا المجتمع متنافراً متصارعاً (وتباعدت طبقات الخواص عن العوام بدرجة لا صلة بينها، ولا يفور من الطبقة السفلى إلى العليا إلا صدى الاختلال وصياح الحسد، وانين الحقد والنفرة)[22]. ولا سبيل لإعادة التعاون وضمان العدالة الاجتماعية (إلا بجعل الزكاة دستوراً عالياً واسعاً في تدوير الهيئة الاجتماعية)[23].

2- سبل العولمة في تقسيم العالم وتهميش الدول الفقيرة :

لن يسعى هذا المبحث في هذه العجالة، إلى إيضاح مفهوم العولمة، فقد تعددت الدراسات والبحوث حوله ولكن سيتم استعراض آراء المفكرين الإسلاميين فيها لتتضح بعض ملامحها)[24].

يقول الفيلسوف المسلم رجاء جارودي عن العولمة بأنها (نظام يمكن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعه التبادل الحر وحرية السوق).

ويقول الدكتور مصطفى محمود بأن (العولمة مصطلح بدأ لينتهي بتفريغ الوطن من وطنيته وقوميته وانتمائه الديني والاجتماعي والسياسي، بحيث لا يبقى منه إلاّ خادم للقوى الكبرى).

ويقول الدكتور حسن حنفي (هي حضارة وتبعية الآخر، وهي مركزية وفنية في الوعي الأوربي تقوم على عنصرية عرقية، وعلى الرغبة في الهيمنة والسيطرة).

وللعولمة مظاهر اقتصادية، سياسية، ثقافية، واجتماعية، أبرزها العولمة الاقتصادية التي تتسم بإحكام السيطرة على العالم من خلال (صندوق النقد والبنك الدولي) وحرية التجارة والاستثمار من خلال (منظمة التجارة العالمية) وانتشار الشركات متعدية الجنسية وتعاظم حركة رؤوس الأموال .... الخ.

وقد لخص صاحبا كتاب فخ العولمة أهم آثار العولمة الاقتصادية بالآتي (زيادة البطالة، انخفاض الأجور، تدهور مستويات المعيشة، تقلـــص الخدمات الاجتماعية المقدمة من قبل الدول، حرية السوق، كف يد الدول عن التدخل في النشاط الاقتصادي، اتساع في التفاوت في توزيع الدخول)[25].

وسنعرض ابرز آثار **العولمة الاقتصادية** من خلال استعراض تقارير التنمية البشرية للأعوام 1998-2000 والصادرة من البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة.

يشير تقرير التنمية البشرية لعام 1999 إلى ازدياد ثروات الدول الغنية وذلك من خلال اتساع الفجوة بين الدول الغنية التي تتمتع بتكنولوجيا عالية والبلدان الفقيرة بحيث أصبحت اللامساواة اكثر تفشياً من ذي قبل. ويضيف في أن متوسط الدخل في أغنى خمس دول في العالم يبلغ 74 ضعفا لمتوسط الدخل في أفقر خمس دول في العالم، تتركز جميعها في أفريقيا والمثير في الغرابة أن ثروات اكبر ثلاثة أغنياء في العالم تفوق في قيمتها إجمالي الناتج المحلي لمجموعة الدول الأقل تقدما، التي يناهز سكانها الـــ(600) مليون نسمة. وفي حين يكلف شراء جهاز كومبيوتر إنفاق الدخل المتوسط للبنجلادشي لمدة 8 سنوات، فانه يكلف متوسط أجر الأمريكي في شهر واحد[26].

أما تقرير التنمية البشرية لعام /2000 فيشير إلى زيادة تهميش البلدان الفقيرة، إذ انخفضت حصة صادرات البلدان الأقل نمواً التي تضم 10٪ من سكان العالم من (0.6٪) سنة 1980 إلى (0.4٪) سنة 1998. ورغم أن متوسط التعريفات الجمركية أعلى في البلدان النامية منها في البلدان المتقدمة النمو، ما زالت دول فقيرة كثيرة تواجه مستويات للتعريفات الجمركية تمثل ذروة وتصعيدا في تلك التعريفات في

قطاعات حيوية مثل الزراعة والأغذية والسلع الجلدية. أما فيما يخص زيادة تدفق الاستثمار الأجنبي المباشر، فقد أشار التقرير إن أقل البلدان نموا ومجموعها (48) دولة لم تجتذب سوى 0.4٪ من مجموع الاستثمارات الأجنبية المباشرة. وأشرت أيضاً زيادة حادة في انعدام المساواة في الدخل في العالم خلال المدة 1988-1993، إذ أرتفع مؤشر جيني من (0.63٪ إلى 0.66٪) وتشير القيمة واحد إلى انعدام المساواة كلياً (27).

كما أن شأن العولمة زيادة حجم الاستهلاك. وقد أشار تقرير التنمية البشرية لعام /1998 إلى ذلك حين ذكر بان قيمة الاستهلاك العالمي من السلع والخدمات تجاوزت (24) ترليون دولار / في 1998 وهو رقم يعادل ستة أضعاف الرقم الذي كان عليه الاستهلاك العالمي في عام / 1975. من جهة أخرى فإن التفاوتات الصارخة في الاستهلاك قد استبعدت اكثر من بليون شخص بحيث يعجزون عن إشباع أبسط احتياجاتهم (28)

أما **العولمة السياسية**، فقد ظهرت في ظل انهيار الاتحاد السوفيتي وتحول المعسكر الشرقي بحيث وضعت أسس بروز نظام دولي جديد، تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية فيه القوة العظمى الوحيدة، أو القطب الواحد في هذه المرحلة وذلك على المستوى الستراتيجي والعسكري هذه الأحادية القطبية مددت دور الولايات المتحدة على الصعيد العالمي مما حدا بالبعض إلى اعتبار العولمة مرادفة للأمركة.

تبشر **العولمة السياسية** بتفاقم مشكلات العالم الثالث (وبالأخص الإسلامي منه) فيخضع للعمليات الجراحية (استئصال الأورام السرطانية المتمثلة بالإرهاب، فيضرب العراق تارة وأفغانستان تارة أخرى وتصفى فلسطين).

شاع أيضاً في ظل العولمة السياسية بروز ما يسمى بالمجتمع المدني العالمي أو المنظمات الدولية غير الحكومية التي تركز اهتمامها وأنشطتها على قضايا حقوق الإنسان وحماية البيئة وحقوق السلام.. الخ.

ومن الشواهد الملحوظة للعولمة السياسية هو انحسار دور الأمم المتحدة في القضايا السياسية وتحولها إلى أمم أمريكية في حين اتسع مجال الأمم المتحدة في مجال حماية البيئة والتنمية البشرية وغيرها من الأمور الأخرى.

وربما يكون اخطر نتائج العولمة السياسية هو الحد من سيادة الدولة على أقاليمها ومنعها من ممارسة حقها في التدخل في الشؤون الاقتصادية.

تلوح ابرز سيئات العولمة في **المجال الاجتماعي**، إذ إن الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي يعيشه الناس اليوم (في الدول) الغنية والنامية لم يكشف عجز الليبرالية الجديدة المتطرفة عن تحقيق نسب نمو عالية والقضاء على البطالة وتحسين المستوى المعيشي كما بشر دعاتها، بل كشف كذلك حيلها لتتراجع الدول عن المكاسب الاجتماعية القديمة، فتدهورت القوة الشرائية لكثير من الفئات الاجتماعية، وازدادت نسبة البطالة والفقر[29].

ولقد أشار تقرير التنمية البشرية لعام/1999 إلى أن الرعاية الاجتماعية، تواجه تهديدا في ظل اقتصاد السوق والمنافسة، ويشير في هذا الصدد إلى افتقار حياة البشر بشكل متزايد إلى الأمان وتزايد معدلات التفكك الأسرى والجريمة وفي حين يبلغ إجمالي الأرباح العالمية 1.5 ترليون دولار في العالم يرجح التقرير أن الاستغلال الجنسي للنساء والفتيات يحقق أرباحاً سنوية تصل إلى 7 مليار دولار[30].

أما **العولمة الثقافية**، فقد حفلت الأحوال السائدة بجدل واسع حول فكرة اصطدام الحضارات التي أطلقها صموئيل هانتجنتون في كتاب يحمل الاسم نفسه وتثير أطروحته عددا من الإشكاليات في علاقة العولمة بالهوية . ويبشـــر هانتجنتون بعالم تكون فيه الهويات الثقافية – العرقية والقومية والدينية والحضارية – واضحة، وتصبح (هي المركز الرئيسي) وتتشكل فيه العداوات والتحالفات وسياسات الدول طبقا لعوامل الاقتراب أو الاختلاف الثقافي. ويرى أيضاً أن الحضارات هي القبائل الإنسانية، وصدام الحضارات هو صراع قبلي على نطاق كوني[31].

إن مفهوم صدام الحضارات يعني حمل شعوب الأمم النامية للخضوع إلى ثقافة واحدة وغرس قيم ومبادئ لنظم الحياة بين الناس وأسس لأفكارهم بما يملكه النخبة المستفيدة في كل ذلك. ولتحقيق هذا الأمر لابد للعولمة من تحطيم مبادئ ومقومات الثقافات الأخرى وتشويه حقائقها حتى لو كان ذلك عن طريق الصدام.

أما نتائج العولمة على صعيد العالم الإسلامي فالدراسات التي تتناول اثر كل من العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية عليه لا زالت محدودة مع بداية الهجمة عليه (سياسياً) من خلال ما يسمى بمكافحة الإرهاب.

أما الاقتصادية منها فالطابع العام يوحي بتدني مواقع الأقطار الإسلامية وتقهقرها عما كانت عليه في تقارير التنمية البشرية. كما أن البلدان المتبعة لبرامج ما يسمى بالتصحيح

الاقتصادي أثرت تدني معدلات القوة الشرائية وتفشي ظاهرة البطالة وإعدام القطاع العام وانحسار دور الدولة في مجال الخدمات الاجتماعية[32].

3. سبل مواجهة العولمة في رسائل النور :

لا بد من الإشارة إلى أن الأستاذ النورسي رحمه الله يميز ما بين أوروبا النافعة للبشر القائمة على أساس من الدين العيسوي وما بين الثانية التي خالفت الأديان السماوية واستندت إلى الفلسفة الطبيعية المادية وغلبت سيئات المدنية حسناتها.

فيتوجه بالخطاب إلى الثانية، ويصل إلى نتائج قريبة جداً إلى ما تنوي فعله الهجمة الغربية بقيادة العولمة حيث يقول (يا أيها الأوروبا ! إنـــك قد أخذت بيمينك الفلسفة المظلة السقيمة، وبيسارك المدنية المضرة السفيهة. تدّعي أن سعادة البشر بها شلت يداك وبئست هديتك)[32] وكأنه يبشر بنتائج العولمة حين يقول (فيا أوروبا أهديت بدهائك الأعور لروح البشر هذه الحالة الجهنمية، ثم تفطنت لهذا الداء العضال دواء لأبطال الحس في الجملة، وهو الملاهي الجذابة والهوسات الجلاية)[33] وحكمت (بأن الحياة جدال)[34].

وعلى الرغم من مضى أكثر من نصف قرن على كتابة رسائل النور، إلاّ أن ما توقعته لحال المجتمعات المتبعة للفلسفات المادية، تكاد تكون متطابقة لما هو عليه الحال في الوقت الحاضر فركيزة الحياة الاجتماعية للمدينة الحاضرة هي (القوة) وهي تستهدف (المنفعة) في كل شيء. وتتخذ (الصراع) دستوراً للحياة وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات. وغاياتها هي (لهوٌ عابث) لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس التي من شأنها تعظيم جموح النفس وإثارة الهوى. ومن المعلوم أن شأن (القوة) هو (التجاوز) وشأن (المنفعة) هو (التزاحم) إذ هي لا تفي بحاجات الجميع وتلبية رغباتهم. وشأن (الصراع) هو (التصادم) وشأن (العنصرية) هو (التجاوز) حيث تكبر بابتلاع غيرها[35]. ولا نكون مجافين للحقيقة إذا ما ذكرنا أن نتائج العولمة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً قد لخصت في العبارة أعلاه.

ثم تصل الرسائل إلى ذروة التوقعات عندما تعلن بأن المستفيدين في الدساتير الوضعية لن يتجاوزوا العشرين بالمائة (فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة – مع محاسنها – عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادة ظاهرية. بينما ألقت البقية إلى شقاء وتعاسة)[36] وهي النسبة نفسها التي يتوقعها كاتبا (فخ العولمة).

تقترح رسائل النور عدداً من السبل المواجهة المخاطر التي ألحقتها الدساتير والفلسفات الوضعية، تستند في حيثياتها إلى القرآن الكريم. ذلك الدين الذي كرم

الإنسان وعرف دائه ووضع له الدواء المناسب وارتقى به ليجعله سيداً للأرض وعبداً للخالق.

يدعو الأستاذ رحمه الله بالعودة للدين من خلال فهم حقيقته المستندة إلى العلم والإدراك لمعاني القرآن ومعرفة أسراره لتصل بالإنسان إلى جادة الصواب. وتبدأ الخطوة في مراجعة دراسة وتدريس هذا الدين سواء في المدارس الدينية الخاصة أو المدارس العلمية العامة، كي يتسنى إنشاء جيل فاهم لحقيقة دينه ودوره في هذا المجتمع. هذه الحقيقة نابعة من مقاصد القرآن الأصلية التي يوجزها الأستاذ بـــ (التوحيد والرسالة والحشر والعدالة مع العبودية)[37] وللسير في هذا المنهج (لا بد من تدريس العلوم الدينية في المدارس الحديثة تدريساً حقيقياً، وتحصيل بعض العلوم الحديثة في المدارس الدينية)[38] ويضع مواصفات معاصرة تطابق ما كان عليه الواعظ في صدر الإسلام حيث يقول (يجب أن يكون الواعظ محققا، دقيقاً، بليغاً، مقنعاً، وازناً للأمور بميزان الشريعة)[39]. بل، لا يكتفي بهذا الحد ويدعو إلى (فتح مدارس خاصة لتدريس الدين)[40] وفقاً للمواصفات أعلاه.

الخطوة الثانية التي تتبعها رسائل النور لمعالجة آثار المدنية الغربية (العولمة المعاصرة) هي تحصين بناء الأسرة المسلمة نواة المجتمع من خلال تدعيمها بالحب والأمان (إن الحياة العائلية هي مركز تجمع الحياة الدنيوية ولولبها وهي جنة سعادتها وقلعتها الحصينة وملجأها الأمين ... فلا سعادة لروح الحياة إلاّ بالاحترام المتبادل الجاد والوفاء الخالص بين الجميع والرأفة الصادقة التي تصل إلى حد التضحية والإيثار ولا يحصل هذا.. إلاّ بالإيمان بوجود علاقات صداقة أبدية، ورفعة دائمة، ومعية سرمدية لا نهاية له)[41].

ثم يضع الدواء على الجرح، فيقول (إن مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية إنما هو – الشورى –)[42]. ذلك لأنها الطريق إلى الحرية والعدالة والمساواة (التي كانت يترفل بها خير القرون)[43] فالمكبل الذي يشعرُ بالغبن والإحباط والظلم لن يكون قادراً على الإبداع ويكون مستعداً لقبول ما يملى عليه من خارج بيئته.

ولا سبيل للمسلمين في مواجهة المدنية الحاضرة إلاّ باستخدام أسلحتها ذاتها والمتمثلة بالعلوم، فلا بد لهم من امتلاك هذه الناصية بعد إخضاعها لميزان الشريعة أي وفقاً لما يسمى (بأسلمة العلوم) حيث يقول الأستاذ (إن نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة والآتي إلينا من الخارج، لا بد إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة)[44]. بل إن الأستاذ رحمه الله يشدد على ضرورة الأخذ بكل أسباب العلم التي أدت إلى ازدهار الحضارة الغربية مستندا بذلك إلى الأدلة الفقهية وقد أفاض حول هذا الموضوع في رسالة المناظرات.

أما معالجة **الآثار الاقتصادية للعولمة** والتي نجم عنها تفاوت كبير في الدخل كما أشارت إليه البيانات السابقة، فيتم من خلال اتباع دستور الباري عز وجل في (**آتوا الزكاة**) البقرة/43 (**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**) البقرة/275. وذلك لأنه (لا يمكن العيش بسلام ووئام إلاّ بالمحافظة على التوازن بين الخواص والعوام أي بين الأغنياء والفقراء وأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام)[45] وأساس ذلك الزكاة.

أما الربا فقد دفع (العوام إلى الحقد والحسد والصراع القائم بين العاملين وأصحاب رأس المال، ذلك الصراع التي عجزت المدنية بكل جمعياتها الخيرية وانضباطها الصارم عن أن تصلح بين تينك الطبقتين.. بينما يقلع القرآن الكريم هذا الصراع من أساسه بحرمة الربا)[46].

ولمعالجة آثار العولمة المتمثلة بازدياد أنماط الاستهلاك، تدعو رسالة الاقتصاد إلى ضرورة الترشيد لما له من آثار إيجابية تتمثل في كونه سبباً للعزة وللبركة واللذة ولا علاقة له بالخسة (الشح)، والاقتصاد يمثل كنـــز لا يفنى وذلك باتباع القناعة وفوق ذاك وذاك فإنه ينسجم مع الحكمة الإلهية وهو شكر معنوي[47].

الآثار الاجتماعية للعولمة المتمثلة في تفشي الفاحشة والزنا وزيادة عدد المصابين بالإيدز لأسباب شتى. تعتمد رسائل النور في معالجتها على الحكمة الإلهية فـــي تعدد الزوجات ذلك لأن الهدف هو الحفاظ على النوع البشري وتوفير المعيل إذ إنها بزواجها تصبح في مسؤولية زوجهـــا من حيث إعالتها، وتشير الرسائل إلى ما أصاب المدنية من هبوط عندما منعت تعدد الزوجات بحكم أنها مخالفة للحكمة فاضطرت (المدنية إلى فتح أماكن العهر والفحش)[48]. وتمت الإشارة إلى الأهمية المعطاة للكيان الأسري.

ولمعالجة **آثار العولمة الثقافية** فقد أشارت الرسائل إلى ضرورة منع كل ما يجرح الفطرة ويثير الغريزة فلا بد من (منع صور النساء المتكشفات لأنه يهدم الأخلاق ويفسدها كلياً)[49] وهذا ما يتمثل فعله في القنوات الفضائية حالياً.

وتعرج الرسائل فيما بعد إلى فساد الأدب المسرحي والسينمائي والروائي ودوره في تدمير النفس البشرية في ظل المدنية الحاضرة، ويرشد بالمقابل إلى ضرورة اتباع الأدب القرآني ودوره في إعطاء الطمأنينة للنفس البشرية[50].

لقد أثرت الثقافة الغربية في الإنسان فصيرته (فرعوناً)، متمرداً، جباراً، غاية همه، بطنه وفرجه أو منفعة قومه، لا لقومه بل لأجل منفعة نفسه أو تطمين رقة الجنسية، أو تسكين حرصه وغروره ولا يحب إلاّ نفسه، ويفدي لها كل شيء)[51] ثم يدعو إلى ضرورة مفارقة هذا المنهج والعودة إلى منهج القرآن ذلك لأن (هذا الاتباع – أوروبا – استخفاف بالملية واستهزاء بالملة)[52]

تعالج رسائل النور **آثار العولمة السياسية** على مرحلتين، تتمثل المرحلة الأولى في ضرورة إجراء الحوار في ظل الحرية الفكرية، ذلك لأنها ترى أن (المستقبل الذي لا حكم فيه إلاّ للعقل والعلم سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان)[53] إلاّ أنه لا مجال لقبول المذلة في الدين والتهاون في أحكامه، وهذه هي المرحلة الثانية، إذ لا بد من إظهار العداوة والجهاد ضد العدو الخارجي، هذا المفهوم من خلال عبارة ذكرت بصدد الإنكليز (الاستعمار القديم) حيث يقول الأستاذ رحمه الله (إن محبة الإسلام توجب عدائكم وخصومتكم. إن أشد العقول بلاهة يرى إمكان التوفيق والتلاؤم بين أطماع الإنكليز ومنافعهم وبين عزة الإسلام ومصلحته)[54]

لقد نجحت رسائل النور في توقع النتائج التي ستتمخض عن اتباع الفلسفات المادية المبتعدة عن الدين وذلك من خلال التحليل العميق لواقع المدنية الغربية. هذه النتائج لا تكاد تفترق، بل تطابق أحياناً مع ما يراد تمريره على عالمنا المسلم من خلال العولمة. لم تكتف الرسائل بتشخيص النتائج وتركها، بل وضعت الحلول الناجعة لها مستمدة إياها من خلال كتاب الله وسنة نبيه.

ان التعرف على رسائل النور يظهر الفكر الثاقب والأسلوب الرائع للأستاذ سعيد النورسي في الوقوف في وجه الهجمة التي تعرض لها الإسلام من داخل وخارج تركيا في ذلك العهد. والتي يمكن أن تكون دليلا للباحثين لاستلهام سبل مواجهة العولمة في هذا العصر.

رحم الله الأستاذ النورسي وكل عامل وداع ومدافع عن الإسلام إلى يوم الدين.

هوامش البحث :

1. بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، (1) ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص474.
2. المثنوي العربي النوري، ص162.
3. الكلمات، ص487.

4. المصدر نفسه، ص542.
5. المصدر نفسه، ص20.
6. المصدر نفسه، ص82.
7. المثنوي العربي النورسي، مصدر سبق ذكره، ص343 – 344.
8. الكلمات، ص13.
9. المصدر نفسه، ص13.
10. المصدر نفسه، ص646.
11. المصدر نفسه، ص199.
12. المصدر نفسه، ص280–282.
13. صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص514.
14. سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط5، 1958، ص48.
15. الكلمات، ص475.
16. سعيد النورسي، اللمعات، ص79.
17. إشارات الإعجاز، ص269.
18. محسن عبد الحميد، العدل الاجتماعي في الإسلام، بغداد، شركة الرشد للطباعة والنشر، 2000، ص10.
19. سعيد النورسي، إشارات الإعجاز، ص66.
20. المصدر نفسه، ص67.
21. المصدر نفسه، ص68.
22. المصدر نفسه.
23. المصدر نفسه، ص69.
24. محسن عبد الحميد، العولمة من منظور إسلامي، بغداد، ص7–9.
25. هانس بيتر مارتن، هارلود شومان، فخ العولمة، عالم المعرفة، ع238، 1998، ص55.
26. البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، ملخص تقرير التنمية البشرية لعام 1999.
27. ملخص تقرير التنمية البشرية لعام 2000.
28. ملخص تقرير التنمية البشرية لعام 1998.
29. المصدر نفسه.
30. حيدر إبراهيم، العولمة وجدل الهوية الثقافية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد (28)، العدد (2)، أكتوبر–ديسمبر/1999، ص117–118.
31. أسامة عبد الحميد العاني، الآثار الاقتصادية والاجتماعية لبرامج الإصلاح والتكييف الهيكلي في أقطار عربية مختارة، مجلة دراسات اجتماعية، السنة (3)، العدد (10)، صيف/2001، ص63–84.
32. المثنوي العربي النوري، ص268.
33. المصدر نفسه، ص269.
34. المصدر نفسه، ص27.
35. الكلمات، ص472.
36. المصدر نفسه.
37. المثنوي العربي النوري، ص75.

38. السيرة الذاتية، ص72.
39. المصدر نفسه، ص73.
40. الكلمات، ص173.
41. المصدر نفسه، ص105.
42. الخطبة الشامية، ص514.
43. صيقل الإسلام، ص471.
44. المصدر نفسه، ص530.
45. الكلمات، ص474.
46. المصدر نفسه.
47. رسالة الاقتصاد.
48. الكلمات، ص475.
49. المصدر نفسه، ص476.
50. المصدر نفسه، ص477.
51. المثنوي العربي النوري، ص271.
52. المصدر نفسه، ص272.
53. الخطبة الشامية، ص495.
54. صيقل الإسلام، ص555.

* تناول هذه الأسس كل من الشهيد سيد قطب رحمه الله في (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، والأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد أطال الله عمره في (العدل الاجتماعي في الإسلام) تحت عنوان التحرر الوجداني.